

احرص

علي ما يتفهمك واستعن بالله

من «الفتاوى السعودية»

أفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.
أما بعد..

ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أَحْرَضَ عَلِيٌّ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعَيْنَ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»^(١).

هذا الحديث العظيم من جوامع كلم النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وتحتته من المعاني العظيمة والفوائد الجليلة ما ينبغي لكل مسلم أن يحرص عليه؛ فهو توجيهٌ يضع للمسلم المسار القويم الذي ينبغي أن يكون عليه في هذه الحياة، وتأتي كثيرٌ من التساؤلات التي يطرحها كثير من الناس ولاسيما المبتدئين في التدئين وفي طلب العلم: كيف أرتب وقتي؟ وبماذا أبدأ؟ وكيف أطلب العلم؟ وما الذي أبدأ به من العلوم؟ وما هي المتون النافعة التي أبدأ بها؟ وكيف أجمع بين طلب العلم والعبادة وكذلك اكتساب الرزق وتحصيل التجارة؟ وما هي أنفع التجارات؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي ترد في هذا الباب.

ولمّا كان للإمام العلامة عبد الرحمن ابن سعدي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ تعليقٌ عظيمٌ على هذا الحديث جمع فيه بيان كثير من هذه التساؤلات التي تدور في الأذهان وانطلق في تقريرها وبيانها من خلال دلالات هذا الحديث العظيم المبارك.

ولذا سيكون هذا المجلس في هذا الحديث العظيم مع الوقوف على تقارير العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ على هذا الحديث، ويجد طالب العلم هذه الفوائد والتقارير في كتابه «الفتاوى السعدية»، وهو كتاب حافل.



(١) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

المسألة السابعة في قوله رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «أَحْرَضْ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ ما أجَلَّ هذا الحديث وأغزر فوائده وأجمعه لخيري الدنيا والآخرة! فَإِنَّ مَجْمُوعَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي حِرْصِ الْعَبْدِ عَلَيَّ كُلِّ عَمَلٍ يَنْفَعُهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ مَعَ اسْتِعَانَتِهِ بِاللَّهِ، فَمَتَى حِرْصَ الْعَبْدِ عَلَيَّ الْأُمُورَ النَّافِعَةَ وَاجْتَهَدَ فِيهَا وَسَلَكَ أَسْبَابَهَا وَطَرَقَهَا وَاسْتَعَانَ بِرَبِّهِ فِي حَصُولِهَا وَتَكْمِيلِهَا كَانَ ذَلِكَ كَمَالَهُ وَعَنْوَانُ تَوْفِيقِهِ.

بدأ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بعد أن ذكر هذا الحديث العظيم المبارك - وهو مخرَج في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ببيان أهمية هذا الحديث وعظيم مكانته وأنه حديث غزير الفوائد ومليء بالفائس والمعاني العظيمة والدلالات المباركة، وفيه ما ينال به العبد سعادة الدنيا والآخرة؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام أرشد في هذا الحديث إلى ما تتحقق به السعادة للعبد في دنياه وأخراه، وأنَّ جَمَاعَ تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ فِي أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ جُمِعَتْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ:

- الأمر الأول: أن يكون العبد حريصاً على ما ينفعه؛ أي: همته متجهة إلى النافع وحريص عليه، حريص على العلم به، على معرفته، على القيام به.
 - وأن يبذل الأسباب النافعة مجاهداً نفسه على القيام بها.
 - وأن يكون في ذلك مستعيناً بالله تبارك وتعالى متوكلاً عليه.
- فإذا وفق العبد لجمع هذه الأمور الثلاثة تحققت له السعادة في الدنيا والآخرة.



قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

ومتى فاته واحدٌ من هذه الأمور الثلاثة فاتته من الخير بحسبها؛ فمن لم يكن حريصاً على الأمور النافعة؛ بل كان كسلاناً عن النافع له في أمور دينه ودنياه لم يدرك شيئاً، فالكسل أصل الخيبة والفشل، فالكسلان لا يدرك خيراً، ولا ينال مكرمة، ولا يحظى بدين ولا دنيا، وإن كان حريصاً؛ لكن على غير الأمور النافعة - إما على أمور ضارة أو أمور مفوتة للمنافع والكمال - كان ثمرة حرصه الخيبة وفوات الخيرات وحصول الشرور والمضرت، فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد

من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء! ثم إذا سلك العبدُ الطُّرُقَ النافعةَ وحرص عليها واجتهد لم تتمَّ إلا بصدق اللجأ والاستعانة بالله على إدراكها وتكميلها، وألا يتكل على حوله وقوته؛ بل يكون اعتماده التام بقلبه وباطنه على ربه؛ فبذلك تهون عليه المصاعب، وتيسر له الأمور، وتحصل له الثمرات الطيبة في أمر الدين وأمر الدنيا؛ لكنه في هذه الأحوال محتاجٌ - بل مضطرٌّ - إلى معرفة الأمور النافعة التي ينبغي الحرص عليها والجدُّ في طلبها.

يُبيِّن رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى أهمية العناية بهذه الأمور الثلاثة، وأن من فوتها أو فوت بعضها فإنه يكون بذلك قد فوت على نفسه أسباب السعادة؛ من لم يكن في حياته حريصًا على ما ينفعه من أمر دينه ودنياه ما الذي يحصل إلا الخيبة والخسران والحرمان؛ بل إنَّ بعض الناس ينقلب عنده باب الحرص فيكون في الأمور النَّافعة له في دينه ودنياه غير حريصٍ عليها ولا مبالٍ لها ولا مهتمٍّ بها، والأمور التي فيها المضرة المحققة عليه في دينه ودنياه يحرص عليها أشد الحرص!! فمن الناس من يتلى بهذا - والعياذ بالله - تجده حريصًا أشد الحرص على الأمور التي تضره في دينه ودنياه، وتجد أن حرصه فاتر وعزيمته متوانية وتجده في غاية الكسل إذا كانت الأمر نافعًا له في دينه ودنياه!!

كم هي منافع الصلاة وفوائدها العظيمة المباركة وعوائدها على العبد في الدنيا والآخرة، تجد بعض الناس إذا نودي إلى الصلاة كان في غاية الكسل وفي غاية الفتور والضعف وعدم الحرص، ولو نودي إلى شيء من مطاعمه الدنيوية أو ملذاته ومشتهياته قام بكل نشاط وكل عزيمة!!

فإذن من أسس السعادة العظيمة التي عليها تُبنى أن يكون العبد في قلبه حريصًا على ما ينفعه، أن يقوم في قلبه حرصٌ على النَّافع المفيد له في دينه ودنياه، هذا الحرص هو الذي يولِّد العمل، الحريص حرصه كلما قوي تولد عن هذا الحرص العمل، فإذا كان الحرص على النَّافع المفيد تولد عن ذلكم بإذن الله تبارك وتعالى الأعمال النَّافعة المفيدة، يحرص على ما ينفعه ويبذل الأسباب؛ ينفذ عن نفسه غبار الكسل والفتور ويبذل الأسباب، يجاهد نفسه على فعل الأسباب النَّافعة المقربة إلى الله تبارك وتعالى، والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت]. ثم مع هذا كله لا يركن إلى هذه الأسباب؛ بل يعتمد على مسبب الأسباب، متوكلاً عليه، مفوضاً أمره إليه تبارك وتعالى، فإن التوفيق بيد الله؛ ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه: «**اِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ**»؛ أي: اطلب العون من الله تبارك وتعالى في تحقيق هذه الأمور النافعة المفيدة التي تحرص عليها، قد تحرص

على أشياء كثيرة من أبواب الخير في الدنيا والآخرة فلا تيسر لك؛ لأنه لم يصحبك العون من الله، وإذا لم يكن للعبد عون من الله تبارك وتعالى لم يتيسر له أمر؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «لَا تَدْعَنَّ [فِي] دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

فهذه الأمور الثلاثة هي جماع السعادة ونيلها وتحصيلها.

ثم ينبه رَحِمَهُ اللهُ فِي خاتمة ذلك: الحاجة الماسة في هذا الباب إلى العلم النافع الذي يكون به تصحيح المسار ومعرفة الطريق، فمن لم يكن عنده علمٌ نافعٌ كيف يتسنى له أن يحقق هذه الأمور العظام التي تُنال بها السعادة في الدنيا والآخرة!!



قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

إذا تقرر ذلك؛ فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح.

أما العلم النافع: فهو العلم المزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين، وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ما يُشغَل به من الكتب يختلف باختلاف الأحوال والبلدان. والحالة التقريبية في النظر لهذا: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصرات الفن الذي يشتغل فيه، فإن تعذر أو قُصِر عليه حفظه لفظاً فليكرره كثيراً حتى ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب الفن كالتوضيح والتفسير لذلك الأصل الذي أدركه وعرفه.

فلو حفظ طالب العلم «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«الثلاثة الأصول» و«كتاب التوحيد» للشيخ محمد، وفي الفقه «مختصر الدليل» و«مختصر المقنع»، وفي الحديث «بلوغ المرام»، وفي النحو «الأجرومية»، واجتهد في فهم هذه المتون وراجع عليها ما تيسر من شروحاتها أو كتب فنّها فإنها كالشروح لها؛ لأن طالب العلم إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامّة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها الصّغار والكبار؛ ومن ضيّع الأصول حُرِم الوصول.

فمن حرص على هذه العلوم النافعة واستعان بالله أعانه وبارك له في علمه وطريقه الذي سلكه، ومن سلك في طلبه للعلم غير الطريقة النافعة فاتت عليه الأوقات ولم يدرك إلا العناء كما هو معروف بالمشاهدة والتجربة.

يُبَيِّنُ رَحِمَهُ تَعَالَى هُنَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «أَحْرَضَ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ» وَأَنَّ الَّذِي يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْجَانِبِ الدِّينِيِّ أَمْرَانِ: الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ؛ بَأَن يَجْتَهِدَ الْعَبْدُ فِي تَحْصِيلِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ؛ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِي دِينِهِ وَيَنْفَعُهُ فِي تَقَرُّبِهِ إِلَى رَبِّهِ ﷻ وَنِيْلُهُ رِضَاهُ جَلَّ وَعَلَا.

ثُمَّ أَخَذَ يَبَيِّنُ رَحِمَهُ تَعَالَى الْمُنْهَجِيَّةَ الَّتِي تَكُونُ فِي طَلَبِ، وَأَشَارَ رَحِمَهُ تَعَالَى إِلَى أَنَّ بَعْضَ طُلَّابِ الْعِلْمِ لَا يُوَفِّقُ لِسُوكِ مَنْهَجِيَّةٍ دَقِيقَةٍ مُؤَصِّلَةٍ فِي تَحْصِيلِهِ لِلْعِلْمِ فَيَحْصُلُ عِنَاءً كَبِيرًا وَفَائِدَةً قَلِيلَةً، وَأَشَارَ رَحِمَهُ تَعَالَى إِلَى أَنَّ هَذَا مَعْرُوفٌ بِالْمَشَاهِدَةِ وَالتَّجْرِبَةِ، بَيْنَمَا الَّذِي يَعْتَنِي بِالتَّأْصِيلِ وَأَنَّ يَكُونُ لَهُ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ أَصُولٌ يَعْتَنِي بِضَبْطِهَا حِفْظًا وَفَهْمًا وَيَعْتَنِي بِمُطَالَعَةِ شُرُوحَاتِهَا فَتَكُونُ هَذِهِ بِمِثَابَةِ الْأَصُولِ لِشَجَرَةِ الْعِلْمِ الَّتِي تَنْمُو عِنْدَهُ، وَالْعِلْمُ شَجَرَةٌ مَبَارَكَةٌ تَنْتَامِي؛ فَإِذَا كَانَ الْأَصْلُ مَتِينًا قَوِيًّا رَاسِخًا حُسْنَتْ الْفُرُوعُ الَّتِي تَقُومُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ وَعَظُمَتِ الثَّمَارُ وَالْفَوَائِدُ وَالْمَنَافِعُ.

وَلِهَذَا أَرشَدَ رَحِمَهُ تَعَالَى أَنَّ يَكُونُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ فِي الْفُنُونِ الشَّرْعِيَّةِ: فِي الْعَقِيدَةِ، فِي الْحَدِيثِ، فِي اللُّغَةِ، فِي الْأَحْكَامِ يَكُونُ لَهُ مَتُونٌ مَخْتَصِرَةٌ يَحْفَظُهَا؛ ذَكَرَ رَحِمَهُ تَعَالَى فِي الْعَقِيدَةِ «الْوَاسِطِيَّةَ» لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ وَ«كِتَابَ التَّوْحِيدِ»، وَ«الْأَصُولَ الثَّلَاثَةَ» لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ تَعَالَى، فَهَذِهِ الْكُتُبُ الثَّلَاثَةُ إِذَا وَفَّقَ طَالِبُ الْعِلْمِ إِلَى حِفْظِهَا حِفْظًا مَتَقْنًا وَاعْتَنَى بِشُرُوحَاتِ هَذِهِ الْكُتُبِ - وَهِيَ كَثِيرَةٌ جَدًّا صَوْتِيَّةٌ وَمَكْتُوبَةٌ - أَصْبَحَ عِنْدَهُ أَصْلٌ وَقَاعِدَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ، بَعْدَهَا يَنْطَلِقُ إِلَى الْكُتُبِ الْآخَرَى الْمُتَوَسِّعَةِ فِي هَذَا الْفَنِّ، وَلَا يَدْخُلُ فِي التَّوَسُّعِ قَبْلَ أَنْ يَثْبُتَ الْأَصْلُ، فَمَنْ حُرِّمَ الْأَصُولَ حُرِّمَ الْوَصُولَ كَمَا أَشَارَ رَحِمَهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ الْأَصْلُ قَائِمًا ثَابِتًا يَبْدَأُ بَعْدَ ذَلِكَ بِبِنْيِ عَلَيْهِ بِالتَّوَسُّعِ وَالْمُطَالَعَةِ فِي كُتُبِ الْعِلْمِ الْمُتَنَوِّعَةِ.

وَفِي بَابِ الْحِفْظِ نَبَهَ عَلَيَّ تَنْبِيهِ جَمِيلٌ جَدًّا؛ يَقُولُ رَحِمَهُ تَعَالَى مَا مَعْنَاهُ: إِذَا لَمْ تَتِمَّكَّنْ مِنْ حِفْظِ الْمَتْنِ؛ يَعْنِي لَمْ تَتِمَّكَّنْ مِثْلًا مِنْ حِفْظِ «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ» يَقُولُ: أَقْرَأْهَا كَثِيرًا كَرَّرْ قِرَاءَةَ الْمَتْنِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَحْفُوظًا عِنْدَكَ يَكُونُ أَشْبَهَ بِالْمَحْفُوظِ، إِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ لَكَ تَحْفِظُ «الْوَاسِطِيَّةِ» حِفْظًا كَامِلًا بِحَيْثُ إِذَا طُلِبَ مِنْكَ أَنْ تَقْرَأَ قَرَأْتَ مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا، إِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ لَكَ هَذَا الْحِفْظُ الْمَتَقَّنُ كَرَّرْ قِرَاءَةَ كِتَابِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً فِي الْأَوْقَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ فَسَيَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا الْمَتْنُ أَشْبَهَ بِالْمَحْفُوظِ، وَتَجِدُ هَذَا الْأَمْرَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ؛ عِنْدَمَا تَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ فِي بَابِ الصِّفَاتِ فِي بَابِ الْإِيمَانِ

باليوم الآخر غير ذلك ممّا هو مبين ومذكور دلائله في كتاب «العقيدة الواسطية» تجد أن تلك القراءة المتكررة التي هي أشبه بالمحفوظ تكون بإذن الله تبارك وتعالى تُسَعِّفك في استحضار الدليل والشاهد.

مثل ذلك أيضا «كتاب التوحيد» و«الأصول الثلاثة»، فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ يُؤَكِّد على حفظها، وإن لم يتيسر الحفظ يقرؤها مرات كثيرة حتى تكون أشبه بالمحفوظ.

أيضا في الأحكام الفقهية أشار رَحِمَهُ اللهُ إلى «دليل الطالب»، والتمتون الفقهية عديدة في هذا الباب، وله رَحِمَهُ اللهُ تعالى متن فقهي نفيس جدًّا سماه «منهج السالكين في الفقه في الدين» وعليه شروحات عديدة لأهل العلم، فالتمتون الفقهية أيضًا متعددة فيحرص طالب العلم على متنٍ أو متنين من هذه التمتون الفقهية حتى تكون له أصلًا في هذا الباب باب الفقه في الأحكام.

أيضا في الحديث أشار رَحِمَهُ اللهُ تعالى إلى «بلوغ المرام».

وكان رَحِمَهُ اللهُ تعالى يعتني بتحفيظ طلابه هذه التمتون، وعامة طلابه - رَحِمَهُ اللهُ ورحمهم - اعتنى بهم عناية دقيقة في حفظ هذه التمتون في الفقه وفي الحديث وفي الاعتقاد، وإذا كان طالب العلم بهذه الصفة يُصبح لديه بإذن الله تبارك وتعالى أصول عظيمة ثابتة يبني عليها علومه، ومن لم يكن على هذه الطريقة يفوت على نفسه خيرا كثيرا، يعني يكون من منه عناء طويل؛ لكن تكون الفائدة قليلة ومحدودة.

وفيما يتعلّق بالتمتون في الحديث وفي الفقه وأنواع الفنون الشرعية هناك كتاب مطبوع في مجلد اسمه «الدليل إلى التمتون العلمية» في مجلد كبير، هذا الكتاب حقيقة مفيد جدًّا لطالب العلم؛ لأنه يذكر لك التمتون، ويذكر أيضا شروحات هذه التمتون المكتوبة والمسموعة، جميع التمتون سواء في الحديث أو العقيدة أو التفسير أو الأحكام أو اللغة أو غير ذلك، يذكر أهم التمتون في هذا الباب، ويذكر أيضا ما لها من شروحات، والشيخ رَحِمَهُ اللهُ أشار إلى العناية بالتمتون والاستفادة من شروحاتها، فإذا أردت أن تقف على أنواع التمتون في الفنون الشرعية مع أيضا شروحاتها؛ فيمكن أن تستفيد من هذا الكتاب الذي بعنوان «الدليل إلى التمتون العلمية» للشيخ عبد العزيز بن قاسم.



قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

أما الأمر الثاني: فهو العمل الصالح؛ فالعمل الصالح هو الذي جمع الإخلاص لله والمتابعة للرسول، وهو التقرب إلى الله باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحقه على عباده من العبودية،

وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وتصديقه وتصديق رسوله في كل خبر أخبر به، ثم يسعى في أداء ما فرض الله على العباد من حقوقه وحقوق عباده، ويكمل ذلك بالنوافل والتطوعات وخصوصاً المؤكدة في أوقاتها مستعيناً بالله على فعلها وتكميلها ظاهراً وباطناً، ثم يتقرب إلى الله بترك المحرمات وخصوصاً التي تدعو إليها النفوس الأمارة بالسوء؛ فيتقرب العبد إلى الله بتركها كما يتقرب إليه بفعل المأمورات، فمتى وفق العبد لسلك هذا الطريق في العمل واستعان الله على ذلك أفلح وأنجح، وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور، ونقصه بحسب ما فاته منها.

ثم تحدث رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عن الجانب الثاني وهو العمل الصالح.

قال رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: قيام العمل الصالح على أمرين: الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، فلا يكون العمل صالحاً متقبلاً مشكوراً عند الله تبارك وتعالى إلا إذا كان قائماً على هذين الأصلين العظيمين والأساسين المتينين الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: "أحسن عملاً أي أخلصه وأصوبه"، قيل: وما أخلصه وأصوبه؟ قال: "إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة".

ففي باب العمل الصالح الذي يرجو العبد نفعه وفائدته وثوابه وأجره عند الله تبارك وتعالى عليه أن يعتني عنايةً دقيقةً بهذين الأمرين:

الإخلاص لله؛ أن تكون جميع أعماله خالصة لله؛ يبتغي بها وجه الله تبارك وتعالى، لا يطلب بها رياءً ولا سمعة ولا حظاً من حظوظ الدنيا، وإنما يريد بها وجه الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

ويحرص أيضاً على الاتباع للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام؛ لأن الأعمال لا يتقبلها الله تبارك وتعالى من عاملها إلا إذا كانت موافقة لهديه مطابقة لسنته رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وقد قال في الحديث الصحيح «مَنْ عَمِلَ

عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)؛ وما فائدة عمل يُنصب عليه صاحبه ويتعب ويجد ويجتهد ثم تكون النتيجة أن يُرد عليه ولا يقبل منه؛ لأنه افتقد شرط الاتباع للرسول الكريم صلواتُ الله وسلامه عليه.

إذن في باب العمل الصالح يحرص العبد على هذين الأمرين: الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ثم نبه ﷺ أن باب العمل يُبدأ به بالفرائض والواجبات وهي المقدمة، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»^(٢)، ففرائض الإسلام وواجبات الدين هي المقدمة ويعتني أولاً بعناية دقيقة بالفرائض وهي أحب أمرٍ يتقرب بها المتقرب إلى الله ﷻ، ثم بعد ذلك ينافس في الرغائب والنوافل والمستحبات، ولهذا قال في الحديث نفسه: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ [اسْتَعَاذَنِي] لِأُعِيدَنَّهُ».

ثم أيضا مما يُتقرب إلى الله به وهو داخل في عمل العبد الصالح: أن يتقرب إلى الله بتجنب الحرام؛ فإنه كما أن العبد يتقرب إلى الله بفعل ما أمر؛ فكذلك يتقرب إليه ﷻ بترك ما نهى عنه وزجر، ولهذا ترك المحرمات داخل في الإيمان، وهو من جملة الإيمان، ومن أعمال الإيمان = أن يترك العبد الحرام.

وتأمل في هذا المعنى قول النبي عليه السلام «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخمر حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٣) دلَّ الحديث أنه إذا فعل المؤمن هذه الأفعال ماذا تُحدث في إيمانه؟ نقصاً وضعفاً وهاءً، وإذا تركها تقرباً إلى الله كان تركها إيماناً وتجنبها زيادة في الإيمان، ومما يثاب عليه العبد ويؤجر عند الله تبارك وتعالى، وإذا همَّ العبد بالمعصية وتركها لأجل الله كتبت حسنة كما ثبت بذلك الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه^(٤).

(١) رواه البخاري تعليقا في كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مرذوداً، ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) رواه البخاري (٦٨١٠).

(٤) قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ؛ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

إذن في باب الأعمال الصالحة يعتني أولاً بالأساس: الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، ثم يبني على ذلك العناية بفرائض الإسلام وواجبات الدين، وأيضا التقرب إلى الله ﷻ بتجنب المحرمات والآثام، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الإكثار من النوافل والרגائب والمستحبات، وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قال العلماء رحمهم الله:

- المقتصد: هو الذي يفعل الواجب ويترك المحرم.
- والسابق بالخيرات: هو الذي يزيد على فعل الواجبات وترك المحرمات؛ التنافس في الرغائب والمستحبات.

- والظالم لنفسه: هو الذي ظلمها إما بترك واجب أو فعل محرم ما لم يبلغ ذلكم حد الكفر بالله

ﷻ.

وقد بين أهل العلم أن المقتصد والسابق بالخيرات كل منهما يدخل يوم القيامة الجنة بدون حساب ولا عذاب، وممن بين ذلك ووضحه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الإيمان»، المقتصد الذي فعل الواجب وترك المحرم يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب؛ لأن المستحبات لا يعاقب على تركها؛ من فعلها أثيب ومن لم يفعلها لا يعاقب، لكن الذي عليه العقاب والحساب ترك الفرائض أو فعل المحرمات، فإذا فعل الفرض وترك المحرم كان مقتصدًا، ومعنى مقتصدًا: أي مقتصرًا على الفرائض والواجبات وتجنب المحرمات، فإذا زاد على ذلك في الرغائب والنوافل والمستحبات كان من السابقين بالخيرات الذين لهم في الجنة الدرجات العلاء.



قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

وأما الأمور النافعة في الدنيا؛ فالعبد لا بد له من طلب الرزق، فينبغي أن ينظر أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله فيسلكها ويعمل عليها، وذلك يختلف باختلاف الناس، ويقصد بطلبه وسعيه القيام بواجب نفسه وواجب عائلته ومن يقوم بمؤنته، وينوي الكفاف والاستغناء بسببه عن الخلق، وكذلك ينوي القيام بالعبوديات اللائقة بالمال من زكاة وكفارة ونذر ونفقات ونحوها من كل ما يتوقف على المال، فمتى كان طلب العبد وسعيه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة وسلك أنفع طريق يراه مناسبًا لحاله وسلم من المعاملات الرديئة والغش وتوابعها كانت حركاته قرابة يتقرب بها إلى الله ﷻ.

ولا يتم ذلك إلا بالتوكل على الله وحده راجياً منه أن ييسره لأيسر الأمور وأنجحها وأقربها تحصيلاً لمراده، ويسأل الله أن يبارك له في رزقه:

فأول بركة الرزق: أن يكون مؤسساً على التقوى والنية الصالحة.

ومن بركة الرزق: أن يوفق العبد لوضعه في مواضعه الواجبة والمستحبة.

ومن بركة الرزق والمعاملة: أن لا ينسى العبد الفضل قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وذلك بالتيشير على الموسرين، وإنظار المعسرين، والمحابة عند البيع والشراء بما تيسر من قليل وكثير، وإقالة المستقيل، والسماحة في البيع والشراء، فمتى وفق لهذا أدرك خيراً كثيراً.

فإن قيل: أي المكاسب أولى وأفضل؟

قيل: قد اختلف العلماء؛ فمنهم من فضل الزراعة والحراثة لما فيها من قوة التوكل وتعلق الرجاء بالله في إنزال الغيث، ولما فيها من النفع المتعدي.

ومنهم من فضل البيع والشراء لما فيه من الشرف وحسن الاعتبار وتوسّع المعرفة والبركة.

ومنهم من فضل الصناعة لما فيها من القيام بالمنافع الكلية.

ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع في هذه المسألة إذ قال ﷺ: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، والنافع من ذلك معلوم أنه يختلف باختلاف الناس، فقد يكون بعض المذكورات أفضل في حق شخص، ويكون الآخر أفضل في حق الآخر.

ولكن السبب الذي يأتيك براحة وطمأنينة ويكون فيه معونة على أمور دينك لا ريب أنه أفضل الأسباب على الإطلاق.

ثم إنه ﷺ في آخر الحديث حَصَّ على الرضا بقضاء الله وقدره بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع في الحرص على النافع، فإذا أصاب العبد ما يكره فلا ينسبه إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها؛ بل يخلد إلى قضاء الله وقدره ليزداد إيمانه ويسكن قلبه؛ فإن (لو) في هذه الحال تفتح عمل الشيطان، وهو نقص الإيمان وعدم الرضا بقدر الله وقضائه، وتفتح (لو) باب القلق والحزن من تشوش الأسباب، وهذه الحال التي أرشد إليها ﷺ هي الطريق الوحيد لراحة العبد في دنياه، كما أنها خير له في دينه وأخراه، فإن مدار سعادة الدنيا على راحة القلب وسكونه وقناعته بما قسم الله وذلك بما دل عليه

هذا الحديث من الحرص على كل أمر نافع وسيلة ومقصداً مع الاستعانة بالله وقت حصوله، والرضا بالله وبقدره بعد حصوله. والله أعلم.

قوله ﷺ في الحديث: «**اِحْرَضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**» يتناول النفع في الجانب الديني، ويتناول أيضاً ما ينفعك في الجانب الدنيوي؛ كل من هذا حث النبي ﷺ أن تحرص عليه، فإن قوله: «**اِحْرَضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**» أي: ما ينفعك في دينك وما ينفعك في دنياك.

ويبين ﷺ فيما سبق ما يتعلق بما ينفع العبد في دينه وأن قيام ذلك على العلم النافع والعمل الصالح، ثم في هذا الموضوع أخذ يبين ﷺ تعالى ما يتعلق بالأمور النافعة في أمور الدنيا وأشار ﷺ تعالى إلى أن العبد لا بد له من رزق - لا بد من طعام لا بد من شراب لا بد من مسكن له ولأهله ولولده، هذه أمور لا بد منها، وكل يحتاج إليها فهو أمر لا بد منه - والشريعة جاءت بالحث على بذل الأسباب في تحصيل النافع من الرزق ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَازِلِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

فيقول ﷺ تعالى: إن العبد لا بد له من طلب الرزق، فينبغي أن ينظر أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله فيسلكها؛ بمعنى: أنك عندما تريد أن تقدم على مجال من المجالات أو عمل من الأعمال في طلب الرزق تتأمل وتتفقه في هذا المجال من حيث: أولاً: عدم مخالفته لشريعة الله تبارك وتعالى.

وثانياً: من حيث موافقته لحالك ونفسك وقدرتك.

فيشير ﷺ إلى أهمية التفقه في هذا الباب، والناس يختلفون في ميولاتهم ورغباتهم وقدراتهم وإمكانياتهم تفاوتاً عظيماً، ولهذا كل له وجهة، ولا حرج على أيٍّ منهم فيما اتجه إليه ما لم يكن مخالفاً لشرع الله ﷻ.

ثم ينبه ﷺ إلى أمر يتعلق بطلب الرزق يغفل عنه كثير من الناس ألا وهو: أن يقصد بطلبه وسعيه القيام بواجب نفسه وواجب عائلته ومن يقوم بمؤنته وينوي بذلك الكفاف، فإذا وجدت هذه النية أن الإنسان يطلب الرزق يسعى في تحصيل المال ليعف نفسه وليحصل الكفاية لنفسه ولينفق على أهله وولده ممن تجب عليه النفقة عليهم يستحضر هذه النية فإنه بإذن الله تبارك وتعالى يؤجر، ثم أيضاً ينوي بطلبه للمال العبوديات التي تتعلق بالمال، حتى وإن لم يحصله ينوي أنه يتاجر ويقوم بالصناعات أو

بالفلاحة أو غيرها حتى يحصل مالا يتصدق ينفق يخرج الزكاة فمثل هذه النية التي تصحب العبد من أول العمل تكون سبباً للبركة في العمل نفسه، وأيضا يؤجر على هذه النية الصالحة التي قامت في قلبه. ثم ينبه ﷺ تعالى على الحذر في التجارة والصناعة وغير ذلك من أبواب كسب الرزق من المسالك المحرمة من غش أو احتيال أو خديعة أو بيع محرمة أو معاملات محرمة أو نحو ذلكم، يحرص على أن يطهر تجارته وصناعاته وأعماله من ذلك كله، ثم ينبه ﷺ تعالى على أهمية التوكل على الله ﷻ وطلب العون منه جل وعلا في ذلك كله.

ثم أشار ﷺ إلى البركة في الرزق، وكيف أن الرزق يكون مباركا؛ يقول ﷺ: (بركة الرزق أن يكون مؤسسا على التقوى والنية الصالحة، وأيضا أن يوفق العبد لوضعه في مواضعه الواجبة والمستحبة) وضع المال الذي يكتسبه في مواضعه الواجبة مثل النفقة على الأهل والأولاد، والمستحبة: البذل في سبيل الله تبارك وتعالى (ومن بركة الرزق والمعاملة أن لا ينسى العبد الفضل قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسُوا أَلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وذلك بالتيسير على الموسرين، وإنظار المعسرين، والمحابة عند البيع والشراء بما تيسر من قليل أو كثير، وإقالة المستقيل، والسماحة في البيع والشراء، فمن وفق لهذا أدرك خيرا كثيرا).

ثم يقول ﷺ: إن قيل: أي المكاسب أنفع؛ هل هي التجارة أو الزراعة أو الصناعة أو البيع والشراء؟ ما الأنفع من ذلك؟ أشار ﷺ إلى ما في كل من هذه من فائدة، ثم نبه ﷺ أن الفاصل في هذا الباب هو الحديث قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**» قال: «**مَا يَنْفَعُكَ**» وأضاف النفع إليك، ومعلوم أن ما ينفع زيد يختلف عن ما ينفع عبيد، بحسب قدرته - هذا وذاك -، بحسب إمكانياته، بحسب الأمور المتاحة مثلا في بلده؛ قد يكون زيد الأصلح له الزراعة؛ لأنه يعيش في بلد زراعي ومهياة الزراعة ووسائلها إلى آخره، وعبيد من الناس الزراعة لا تصلح له ولا تنفعه ولو دخل فيها لم يستفد إما لعدم أهليته لهذا الأمر ودرايته به، أو لعدم أيضا أهلية الأرض التي هو فيها وتهيؤها للزراعة.

فإذن لا يقال في هذا الباب مثلا الزراعة هي أنفع الأمور لكل أحد أو الصناعة هي أنفع الأمور لكل أحد؛ بل الفيصل في هذا هو الحديث «**أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»؛ يعني انظر فيما ينفعك أنت بخصوصك من حيث قدراتك، من حيث الأمور المتاحة لك في بلدك، من حيث إمكانياتك إلى غير ذلك من الاعتبارات، فالحديث هو الفيصل في هذا الباب.

يقول رَحِمَهُ اللهُ: (والنافع من ذلك معلوم أنه يختلف باختلاف الناس، فقد يكون بعض المذكورات أفضل في حق شخص ويكون الآخر أفضل في حق الآخر) يعني تكون التجارة أنفع لهذا والزراعة أنفع لذاك بحسب الاعتبار التي أثمرت إلى شيء منها.

ثم يقول رَحِمَهُ اللهُ: (ولكن السبب الذي يأتيك براحة وطمأنينة ويكون فيه معونة على أمور دينك لا ريب أنه أفضل الأسباب على الإطلاق).

ثم أشار إلى الفائدة العظيمة التي حُتم بها هذا الحديث وهو حض النبي عليه الصلاة والسلام حثه على الرضا بالقضاء والقدر وعدم التسخط والجزع، فإذا أصاب العبد ما يكره فلا ينسبه إلى ترك بعض الأسباب، إذا دخلت في تجارة أو دخلت مثلا في زراعة وعملت وتعبت ثم جاء وقت الحصاد وحصل لزراعتك آفة من الآفات أو مرض من الأمراض أو كان المحصول قليل جدًا أقل مما كنت تؤمل وتطمح؛ لا تكن في هذا المقام ممن يقول: لو أنني عندما بدأت الحراثة وبدأت الزراعة فعلت كذا، ولو أنني أخذت بمشورة فلان، ولو أنني لم أضع هذا المحصول ووضعت المحصول الفلاني ولو ولو.. هذا كله لا ينفعك، هذا يفتح عليك باب عمل الشيطان.

أيضا إذا دخلت في تجارة وحصل لهذه التجارة شيء من الخسارة أو لم يحصل الربح الذي كنت تؤمله لا تفتح على نفسك عمل الشيطان «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا» هذا يفتح عليك عمل الشيطان، لكن في مثل هذا المقام عليك أن تقول: «قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» ثم انظر في أيامك القادمة وأعمالك وتدارك الأخطاء السابقة، واجتهد في العمل مستعينًا بالله متوكلًا عليه، أما إذا فتح الإنسان على نفسه عمل الشيطان لو أنني قد يصاب بانهزام في تجارته أو في زراعته أو في أعماله، ولهذا بعض الناس ينثني في وسط الطريق بسبب (لو)، وبسبب أنه فتح على نفسه عمل الشيطان، لكن لو قال: «قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» ورضي بالشيء الذي قُسم له وكُتب ثم بدأ يعمل من جديد بهمة ونشاط هذا كله من أسباب التوفيق بإذن الله تبارك وتعالى. يقول رَحِمَهُ اللهُ: (فإذا أصاب العبد ما يكره فلا ينسبه إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها؛ بل يخلد إلى القضاء والقدر ليزداد إيمانه ويسكن قلبه، فإن لو في هذه الحال تفتح عمل الشيطان وهو نقص الإيمان وعدم الرضا بقدر الله وقضائه، وتفتح لو باب القلق والحزن من تشوش الأسباب، وهذه الحال التي أرشد إليها رَحِمَهُ اللهُ هي الطريق الوحيد لراحة العبد في دنياه

كما أنها خير له في دينه وأخراه) فإذا وفق العبد لهذا المسلك تحققت له بإذن الله تبارك وتعالى السعادة في الدنيا والآخرة.

خلاصة القول: أن هذا الحديث حديث عظيم، وكل واحد منا بأمرس الحاجة إلى العناية بهذا الحديث فهماً لمضامينه وتحقيقاً لدلالاته العظيمة المباركة، وجمع هذا الحديث كما نبه المصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالى ما يتحقق للعبد به السعادة في الدنيا والآخرة.

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا جميعاً للبصيرة بهدي نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وحسن الانتفاع بهدياته وإرشاداته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وأن ينفَعَنَا بما عَلَّمْنَا وأن يزيدنا علمًا، وأن يجعل ما نتعلَّمه حجة لنا لا علينا، وأن يُصلح لنا شأننا كله إنه تبارك وتعالى سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

